فيروز
شايف البحر شو كبير

ادريس عيسى

١ ـ استهلال

ذَريني أَرْقَ معارجَ صوتِك، دربي إلى سدرة المنتهى، حيث يلقى الملوكُ الملوكُ وأَمْثُلُ حتّى أُرى فاقداً بصري الدُّنْيويَّ. ذريني أذهبْ إلى حدِّ يمنايَ: أكتبْ عن الطّفل في ركن مقصورة النُّور (لوحٌ سليمٌ على ركبتيه، ولؤلؤةٌ تتوهج في راحة الكفّ)، أَرْحلْ كما طائرُ البحر يمضي إلى أرْخَبيلاتِ غربته ونهايات ظلِّ جناحيه فوق المياهِ الحليمة. إني سأصعد سُلّم حدسي ومن ذروتي أتقرّى المهاويَ مثل حُداة الشّعوب السّحيقة إذ يقتفون الصّباحَ، السّحابَ، الرّمالَ الّتي في لجام الرّياح، الوحوشَ، علاماتِ ربِّ، عمودَ القرابين، رفَّ الطّيور، الدُّخانَ المقدَّسَ. شعبٌ من الصّبية الأنبياء معي، كلُّ طفل برأسه قريةُ حُلم على وثَنٍ لم تَدُرْ، وعلى نُصْبِه لم تُقَرِّب دماً

إن كفّي على أكرة البابِ؛
بابِ السَّما.

٢ ـ يونيو ٦٩ (حاشية لأغنية حزينة)

صبيٌّ ناحل، والرَّتْمُ صاحِبُه الفقيرُ، يداه صوبَ الشّرق. يمضي، ليس يدري هل تلاقيه القرى بحجارة، أم أنَّ امرأةً سينشقّ المدى لحضورها فتقودُهُ للعرش. يهجر آخرَ الصّحراء عبر غمامتين امتدَّتا تحت الجفون فأمطرت أهدابُه. انفتحت طريق الغابة الأخرى؛ الكلام. سَرى، لباسُه رعبُه، والزّادُ فاكهةُ المدى والنَّجمُ. صوتُك كانَ قنديلاً إلهيّاً يضيءُ سُراه. مال لكي يداريَ دمعه، فرأى سماء القدس قرميداً، سلاحَ عصائبَ ائْتَلَفَت على ظلِّ الطّواطم واحْتفت بدَم.. غبارَ مُهاجرين وخيمةً تعلو وتَدْهَمُ ذروة المنفى. وكنتِ بداية الأسماءِ[1]: لم تعُدِ الدّفاتر في يديه سوى هوامشَ للغواية والجنوح إلى الأقاصي. صارت الأقلام أفخاخاً يصيدُ بها وُعولَ البرق. والأشياءُ يَقسِم بينها أسماءها ويسوسُ مُلْكاً واسعاً أُمَمُ العناصر فيه حلم واحد. كنتِ الدّليلة في شعاب التّيه. يذكر: أوّلَ الحمّى، توحَّدَ واكتفى بالحرف، صار الوقت كهفاً حوله ترغو العشائر بالمعادن والبنود يقودها الكُهّان مستهدين نجم الثّأر. في كلّ العشائر فدية لدم قديم صارخ بعشيرة، والأرضُ طاحون يدور بها على الأحياء ثوران: العمى والقتل. يذكر: طار من إبطيه سرب قطا، وصار الكف مشكاة من البلّور،

حينئذٍ أضاء.

٣ ـ قمر الحرب

ربّما
كانت الحرب
أعلى من الشُّرُفات وكانْ
لهبُ الحرب أعلى من العين أوسعَ
من شهقة الرّوح أوسعَ من قمر الأرز والسَّرْوِ
والسِّنديانْ

ربّما كانت الأرضُ أرجوحةً بين نِدّين مُحْتَربين يقودان ثور السَّديم إلى مُدُن أُفْقها الحلمُ يقتسمان غبارَ المشيئة أو يَجْلُوان مرايا النّهار بفضّة تهلكة ومديحهما ليس للماء ليس لمائدة البحر بل لغَدِ الزّهرة المعدنيّة تَنْشُرُ في جثث خانها شكلُها زرْقَةَ البَتلاتِ وأُبَّهة الجذْر. لكنّ صوتَك أعلى من الحرب في الشّرفات ومن قمر الحرب في السَّرو، صوتُك ساريَةٌ للنهار وبيروتُ أخرى يجيءُ إليها المقاتل كي يستريح من الدّم من مهنة الموت أو من يديه، يجيءُ الجنيرال كي يتبرَّأ من ذهب آفِكٍ في نياشينه ثمّ يصغيَ للبحر حين يكون اخْتلافاً وعَدْلاً يجيءُ الفقيهُ: الفتاوي حُباحِبُ حدس بها يتفقّد أقصى الرُّكام النّساءُ اللّواتي يُهشُّ الدَّويُّ بمقلاعه منّ حناجرهنّ الطّيورَ الطّوائفُ بحثاً عن الله في هُدنَةٍ لا تطول الحمامُ الّذي لم يجد قُبّة للهديل المهاجرُ مُدَّرِئاً من جليد الشّتات يجيءُ الّذي لم تَعُدْ له بوصلة غير نَرْدٍ على رقعة الموت ترميه كفا ضريرين

(١) هل كتب الصّبيّ حقّاً قصيدته الأولى بتلعثم النّبات، بعد عام مضى على ذلك الكسوف الحزيراني الطّويل؟ كانت تلك أوّل مرة يلاقي فيها فيروز، ويلاقي الضّوء في صوت امرأة أخرى غير أمّه. ومنذئذٍ لم يخرج من ذلك الصّوت. صار له مرصداً يسهر فيه على خليقته. كان في الثّالثة عشرة من سقوطه الكوني.

ينتشيان بِمَدِّ رنين يضاهي كمالَ الرّنين يجيءُ الصّباحُ الّذي لا يجيءُ ليربط مهرته ـ وقناعُه شمسٌ جنوبيّةٌ ـ جهةَ البحر ممتحناً صوته في عراءٍ وبرّيّةٍ ربّما كانت الأرض وهماً أخيراً يؤوّله بالخرائط غائمةً رهْطُ مجتهدين لشعب هوّيته الشّعرُ لكنّ صوتك أعدلُ إرث سَبَتْه العشائر واقتسمته عواصمٌ أيُّ عمىً أن تشيري إلى السّرب «هذا احتمالُ الطّريق... مَدَاكُم» فينتشر الرّيشُ بعد الإشارة تهويَ فوق التّراب المناقيرُ والحدَقاتُ الّتي رابط الصّحو في مائها الحيُّ مذْ كان صحواً وأيُّ جنون إذن أن تقولي «غنائي لكم وطنٌ» فتهبَّ المتاريس صوب المتاريس تشطره بلداً بلداً أنت واحدةٌ

لـكِ مـا لا يُـبـرَّر؛ صِـدْقُ العصـافيـرِ
إذ ينهضُ الأفق كي يستدلَّ
بها لبداهَتِه.

٤ ـ حجر غريب

للحرب معجزة:

تناسَلتِ البنود من البنود من الكلام، تنابذَتْ كلّ القبائل في حدود رمادها والحِقْدُ صَوّانٌ عليه تسُنُّ معدنها الأليف ومن ذَرورِ سلاحها اكْتَحَل الخراب العاهل اكتحلت جواريه؛ سِنُو الحرب العجافُ البرصُ، واختلفت على العصفورِ واسمِ الله في العصفور والبحرِ الصّديق، وزهرةِ النّسرين في الشُّبّاك والشّعراءِ والموتى وناصيةِ الصّباح وبُحَّةِ الرّيح الّتي تأتي من الصّحراءِ والفقراءِ والنّارِ الّتي تَسِمُ الرّغيف ودبكةِ الفلّاح والنُّوتيِّ، والمهمازِ والسّورِ الّذي يَأوي الحمامُ إليه بعد الفجر، والدَّم، وارتفاعِ التَّلِّ والكتبِ القديمةِ والحديثةِ والّتي لم يَهْتَدِ اللّيل الدّليل إلى مسالكها الخفيَّة والمدادِ ونجمةِ القطب العليمة والهباءِ وسَوْسَنِ العشّاق والسُّفراءِ والميزانِ والجهةِ الّتي يجب افتتاح الأرض منها للمواسم، والدّموعِ، ودرهمِ الذّهب الصّريح يرنُّ فوق صفيحة الشّحّاذ: روحِ الحيِّ إمّا يضحك الأطفالُ، والمتراسِ والطّرسِ الّذي يُطوَى على شمس الشّرائع وارتماءِ الظِّلّ قربَ الظّلّ والطُّغَراء في رمز المليشْيا والخطى تئد الخطى والأبجديةِ والكراسيِّ التّليدَةِ والبيارقِ، والدُّخَانِ وأيِّ جنب يُضْجَع القربانُ ـ كي يُذْكى ـ عليه وبهجةِ الأنثى وسلسلةِ المدى، لكنّها

اتحدت بلا عهدٍ
على حجر غريب لا يُؤَلَّهُ،
مفردٍ في غيره متعدِّدٍ في ذاته، تَتَجَوْهر الأشياء
فيه وتحتفي بظِلالها الأولى كأَنْ سكنت في بَرْزَخِ
الأنفاس: صوتٍ شرقُهُ الإنسانُ يسكنُ في القصيدة،

وهْوَ شرقُ الشَّرْق.

٥ ـ حانة شمس

الجِرارُ الّتي أسكرتْ أُمَماً بنبيذِ دوالٍ سماويّة ملأتها لنا امْرأةٌ دمُها أَرْمنيٌّ ومن صوتها يتسامق لبلابُ فجرٍ به يتجادل سِرْبُ عنادلَ حتّى يُديمَ الرّبيعُ شريعته بيننا.

هكذا
صارت
الأرض
حانة
شمسْ.

٦ ـ قنطرة بين إنشادين

ما الّذي يجعل الأرضَ قوقعةً يتنهَّد في ليلها الكونُ إذ ترفعين من الصّمت قنطرة بين عاصمتين يجاور قنديلَه الحيُّ أو زهرةَ الياسمين بكلتيهما: يتعلّمُ كيف يضيءُ احتراقاً، وكيف يؤكّد للأرض زينتَها؟

٧ ـ نهر (صوت ١)

يتدلّى إلى النّاس من شرفة الضَّوْءِ

في مائِهِ يجد الشّعراءْ
حجراً ليس كالحجرْ
حجراً لبناء مدائنَ أخرى
حجر لشفاء الجروح يؤاخي الجذورَ بغَيْمَتها
ويُسمّي الشّجرْ
عيدَه والمدى توأمَ البَشَرْ

حجر لشقوق السَّماءْ.

٨ ـ منزل راحل (صوت ٢)

أنْصِتوا

وأياديكُمُ الخُضرُ في شرفات الجِرانْيُوم والياسمينْ
ليس صوتاً ولكنّه بلدٌ آخرٌ للإقامَهْ

بلدٌ راحل نحو إمكانه
بين نُسْغِ النّبات وزهو الغمامَهْ.

٩ ـ ملك (صوت ٣)

سيِّدُ الماء والملح والحديدْ

القرى تستظِلُّ اسْمَهُ
والقوافل في مُلْكه تحمل الصّباحْ
في الهوادج في غربة الرّياحْ

سيِّد...
غير أن زرود الدّهاقِنِ تحت يديه
الأمومِيَّيْن وتيجانَهم تستوي بقيود العبيدْ

١٠ ـ شجر الضّوء (صوت ٤)

صوتُها جهةٌ للوحوش الطّريدَهْ
للِّسَانِ إذا طار من قفص الصّمت

لِلُّغة الشّريده
صوتها غابةٌ شجرُ الضّوء يَعْمُرُها
وتنام بها الأبديَّةُ جنب غزالَتِها؛ الرّوحِ

حاضنةً مغزل الحدس
حاضنةً قَمَرَ القصيدَهْ

١١ ـ بحّة (صوت ٥)

بلّوْرٌ إلهيٌّ تكسَّرَ
سوف يلْقُطه الحنينُ: سقوفُه تبلى

سَيَنْحَت من شظايا كوكب البلّور قِرْميداً.

١٢ ـ طائر

هوذا طائرٌ في القصيدةِ

ما من غنائمَ أخرى فتغويَ صقرا على كاهِلِي
لي الصَّحارى وأحوالُها، لي الأنينْ
ربّما أوصد الباب خلفي زمانا وأتركُ أيديَكم في النّحاسِ

لأنصتَ منفرداً بالفراشة دائرةً حول روحي
هكذا أتهجّى غبارَ السِّنينْ

القنيطرة ـ المهدية
(المغرب)

قبل الماء
فوق الحافّة

(شعـر)

عبد المنعم رمضان

شـدّة الحبّ

(شعـر)

غسّان زقطان

دار الآداب